صمت الشوارع وضجيج الذكريات.. غياب براءة الزمن

عيسى حسن الياسري

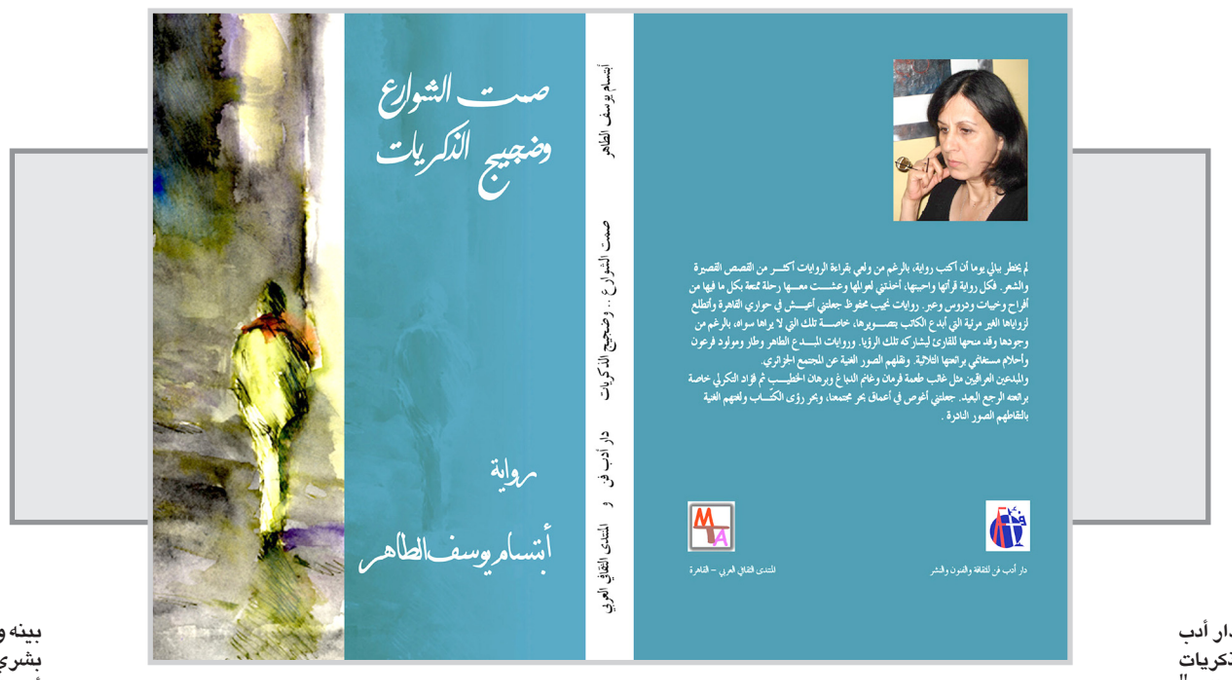

في روايتها الأولى، والصادرة عن دار أدب فن "صمت الشوارع.. وضجيج الذكريات" تتصدى الكاتبة "ابتسام يوسف الطاهر" إلى موضوعة الاغتراب كإزاحة مكانية.. ومغامرة تترك بصماتها النفسية المعذبة على تحولات وعي الإنسان المغترب.. هذا الوعي الذي يقع ضحية الحنين إلى زمن لم يتبق منه سوى ذكريات غائبة.. ووجع يفرضه واقع مغرق في شراسته وقسوته.. حيث تمنحها هذه الرؤية تشريحا مؤثرا لعالم عاشته في أكثر فصول حياتها التصاقا بمعادله المتضاد معه طفولة.. وأحلاما.. وعلاقات حميمة كانت تعدها بأكثر من ضفة تهبها الرسو ألآمن.. والريح الرخية التي تداعب أشرعة حلمها لحظة إبحارها عبر مخيلة الصبا التي لا تطيق الالتفات إلى الوراء.

ولكي تعمق من إدراكها الحسي لمعضلة "المنفى ألقسري" الذي عاشته في طور مبكر من حياتها .. اعتمدت في روايتها البكر الإفادة من إنثيالات الزمن المسترجع .. ومجسات الذاكرة .. مما وفر لها آلية سردية جمعت بين الشعري والتأملي .. وبين ضراوة الواقع .. وحميمة الحلم المؤجل الذي قد يحضر وقد لا يحضر أبداً.. لذا ولكي لا تترك قارئها يوغل في متاهة الوهم هيأته ومن أول صفحة في الرواية لاستقبال شبكة معقدة من الأحداث الصادمة. ممثلة بذلك الطقس المعبأ بحالات مخيفة ومتشككة تفرض حضورها على شخوص الرواية الذين لا تجمع بينهم سوى رابطة السفر المشترك إلى وطن ابعدهم عنه المنفى طويلاً.

أن عنصر المفاجأة في مفتتح الرواية يمثل مقدمة اوبرالية تهيئ وعي المشاهد إلى استقبال سلسلة من الأحداث المثيرة.. فهناك بضعة أشخاص يتهيأون للسفر برا إلى العراق.. كلهم قادمون من مناف مختلفة باستثناء سائق السيارة الذي يشاركهم المخاوف ذاتها.

أنّ رحلة الحلم هذه تتحول إلى حالة من القلق الذي يفرض شكوكاً غير معلنة يتبادلها الجميع في الخفاء.. فالركاب وهم رجل وثلاث نساء ينظرون بعين الخوف والريبة إلى سائق السيارة الذي ربما يكون متواطئا مع "الأرهابيين وقطاع الطرق".. والسائق يرتاب في ان يكون أحد ركاب سيارته على علاقة بالعصابات التي تنتشر على طريق عمان – بغداد.. والركاب كل منهم ينظر بعين الشك إلى الآخر.

إنّ الكاتبة لم تمهد لدخول بوابة عملها الروائي بأية مقدمات تسحب قارئها تدريجيا إلى أكثر عقد الرواية حراجة.. بل أثرت.. وبحس بنائي صادم لموضوعتها ان تضع قارئها.. ومنذ الخطوة الأولى في قلب الأحداث.. كما لو كنا نشاهد عملا مسرحيا على غرار مسرح "بريخت" الذي يزيح الحاجز بين الممثل والمشاهد.

وقد يتوهم البعض أنّ الكاتبة قد وضعت مفاتيح عقدة الرواية من بدايتها في متناول وعي القارئ.. وأنها جعلت كلّ شيء مكشوفا دونما أية أقنعة رمزية..أو إشارات دلالية تبعث على التأمل.. بيد أنّ العكس هو الصحيح..

إنّ اللقاء الأول مع الرواية يوحي بأنّ هناك أشخاصا يسافرون معا.. وكل منهم يتوجس خيفة من الآخر.. وهم وما أنّ يصلوا إلى وجهتهم بسلام.. حتى يتفرقوا عن بعضهم من دونما تحية وداع.. في حين أنّ العلاقات الحميمة التي تشكلت عندهم أثناء الرحلة جعلتهم يفترقون كعائلة.. وهنا تفاجئ القارئ بتحول حركة الأفعال باتجاه معاكس تماما لتوقعاته التي أوحت بها له الصفحات الأولى للرواية.. وهذا ما يمثل عنصرا إيهاميا يقلب كل توقعات المتلقي.

وبالرغم من طول الرواية التي قاربت الأربعمائة صفحة إلا أنّ مساحتها في خارطة الزمن العادي لا تتعدى ساعات السفر.. في حين ظل زمنها النفسي يتجول حراً مخترقا مسافات شاسعة من الماضي المسترجع.. وقد برعت الكاتبة "ابتسام يوسف الطاهر" في الأفادة من ثراء هذا الزمن.. لتحوله إلى وعاء يستوعب أحداثاً لا حصر لها.. ولم تقتصر هذه الأحداث على الشخصية الرئيسة في الرواية التي تحمل إسم "وهيبة" بل تعدت إلى انثيالات الوعي التذكري لكل المسافرين.. وكان البعض منه يمنح تفاصيله بصوت عال.. والبعض الآخر يتخذ من الصمت الذي يفرضه الإجهاد أو الخوف ما سيحصل له منطقة يفرش فوقها ما لم يكن بالأمكان البوح به لشدة حساسيته.. وخصوصيته الفردية.

"الكل خائف.. القادم خائف.. والذاهب خائف.. السائق والراكب لهم نفس الخوف فالسائق قلق من ان يكون الراكب مخادعا.. أو "إرهابياً" .. أوغنياً مرصوداً."

إذن هناك رحلة أو مغامرة "أوديسية".. وإذا كان "أوديسوس" قد واجه مصاعبه وجها لوجه وتمكن من التوائم معها.. إلا أن شخوص الكاتبة يواجهون ما هو أصعب.. إنه المجهول الذي يتيح للمخيلة فرصة خلق كوابيسها ومخاوفها بطريقتها التي تتجاوز حدوثها على ارض الواقع.. في الاقل أنّ الإنسان يستسلم لقدره أمام ما يحدث له.. لكن أنى يتسنى له الهرب مما يخلقه له وهم التخيل.

لقد ظلت الكاتبة تمسك بحركة شخوصها الداخلية والخارجية من خلال إيقاظ الذاكرة.. واستخراج كل ما هو كامن في اللاوعي.. لذا جعلت الحوارات الخارجية تقتصر على مجاملات حذرة تفرضها معضلات الطريق.. ومعضلات معابر الحدود.. وتبادل السجائر.. أو بعض المأكولات.. وهي جزء من تقاليد بيئة عراقية لم يطمسها المنفى بأبنيته المادية و علائقه الأجتماعية.. وقد شكل المنولوج الداخلي.. والتداعي الحر الذي تحركه لحظة ضاغطة بكل ثقلها على وعي المسافرين حواراته الخاصة التي تحتمي بجدار الصمت.. حيث يتظاهر المسافرون بالنوم.. في حين يطلقون العنان لأن ترحل بهم الذاكرة أما إلى معاناتهم في المنفى.. أو إلى أيام الصبا والشباب.. وزمن الدراسة.. واحلامها العاطفية.. وما تتخللها من متاعب على أيدي "عملاء السلطة" التي تفرض ظلالا قاتمة على زرقة سماء تلك الأيام الغائبة.. وقد كان لكل مسافر مؤونته التي متى تذوقها صار أكثر إحتمالا لمخاوف السفر.

"وهيبة" وهي الشخصية الرئيسة تحتمي بماضيها وذلك باستحضار علاقتها الروحية بأستاذها في الكلية وهو "مصري".. والذي كان يزودها بالكتب الأدبية لكتاب تقدميين.. والذي يختفي في ظروف غامضة.. ثم تنتقل إلى الزوج الذي أحبته برومانسية عذبة.. وتبعته إلى آخر حدود العالم.. مضحية بعائلة لا حدود لطيبتها وحميمية علاقاتها.. ولكنه يتخلى عنها وعن أطفاله بعد ان تقوم بينه وبين واحدة من مدمنات البحث عن صيد بشري سهل عبر "الأنتربيت".. وهنا تنهار أجمل أحلامها فوق صخور المنفى.. ويكاد انهيار علاقة "ليلى" و "نداء" بزوجيهما يكون مماثلا لما حصل "لوهيبة" مع اختلاف الوسائل.. وكأن المنفى يحدث هزة في العلائق العائلية.. وعلائق المغتربين ويدمر أكثر جذورها امتدادا في خارطة الحياة المضاعة.

أما "علاء" فكانت له هموم مختلفة.. فقد كان الأكثر حزنا وتوترا.. إنه يستعجل الوقت ليرى "أمه" المريضة قبل أن يتخطفها الموت.

وعندما يصل المسافرون بسلام.. يستقبلهم حزن شوارع "بغداد".. ولافتات الحداد التي ترتديها واجهات البيوت التي تشبه النساء اللواتي أدركتهن الشيخوخة فارتدين السواد حزنا على أيام الصبا الأفلة.

ولكي تعمق الكاتبة من الكارثة.. وترسم للوطن الحلم خارطته الأكثر رعبا من "منزل هاديس".. تعرض أمامنا تلك الأسنان الهمجية التي تقضم آخر كسرة حلم من بهجة لقاء المسافرين مع عوائلهم.

لقد حضر المسافرون جميعا.. ولكن.. ولكي لا تطفئ الكاتبة آخر بصيص ضوء قد يقف بوجه كثافة العتمة.. فأنها قد قادت شخوص روايتها.. دون أيّ انحراف في حركة أفعالهم.. ودون أن تتدخل في توجيه مصائرهم بطريقة "ميلودرامية".. حيث أصرت "ليلى" التي فقدت ابنها "كمال" في مأتم "أم علاء" على أن تظل قريبة من موته بعد أن ابعدتها عنه الحياة.. وانغمرت "وهيبة" في العمل من أجل تخفيف معاناة المعذبين.. أما "نداء" التي عادت إلى منفاها فقد أخذت معها غصن "ياسمين" لتزرعه في حديقة دارها لتجعل منه معادلا لحلمها في أن تنبت زهور أكثر جمالا.. بدلا من حقول الأشواك الوحشية التي افترشت خارطة الوطن.

اوراق

مملكة القارئ

محمود عبد الوهاب

القارئ ، في طروحات نظريتي التلقي والاستجابة ، هو فاعل ومنشط للنص المقروء ومؤلف ثان له ، فالقراءة ، كما يرى (إيزر) هي اللحظة التي يبدأ فيها النص بإحداث أثر ما في قارئه .

أهم ما جاءت به النظرية الأدبية في منتصف القرن الماضي هو تحويل الانتباه إلى القارئ ، والاهتمام بدوره في تفعيل النصوص . توصيف(القارئ العادي) الذي جاءت به (فرجينيا وولف) فقدَ مدلوله في راهن النقد الحديث ، وظهرت توصيفات جديدة للقارئ في المنهجيات الحديثة مثل (القارئ النموذجي) و (الأمثل) و (الفائق) و (المثالي) التي تُفصح عن إقرار صريح بامتلاك القارئ القدرة الناشطة على إعادة إنتاج النص ، يكون القارئ فيه مؤلفاً ثانياً بعد مؤلفه الأول . ما يميّز القارئ النموذجي من القارئ العادي أن الثاني يكتفي بقراءة المعنى اللغوي التقليدي للنص ، بينما يستجيب القارئ النموذجي للتفاعل الذي يحصل بينه وبين النص المقروء ، ويعني هذا "التفاعل " عملية ممارسة ما يفعله النص بقارئه ، فالقراءة هنا ليست عملية لاكتشاف ما يعنيه النص ، بل ما يفعله . القارئ العادي يشاهد بعينيه سطح النص ، بينما القارئ النموذجي مكتشف لما وراء النص ، ومن هنا فعلى القارئ المكتشف أن يهيئ عُدّته للحفر في باطن النص عميقا . إن أضواء الدلالات العميقة للنص تجتذب القارئ وهو يتلقى من الداخل إشارات تحريض للإيغال في ما وراء السطح ، فسطح النص علامات متشابكة متداخلة ينبغي للقارئ أن يخترقها وإلاّ كان مستهلكاً للنصوص لا منتجاً . كيف يخترق القارئ تلك العلامات ؟ . يرى (إمبرتو إيكو) أن النصّ ليس نسيجاً من الدلالات الصريحة، لكنه قارة رهيبة من المسكوتات التي يتوجب على القارئ ملء فراغاتها واستنطاق مكنوناتها ، فالنص آلة كسولة تحتاج إلى من يضيف إلى هيكلها معانيَ أخَر . ويرى (بول ريكور) أن القراءة لا تقف عند حدود الفهم واجتراره ، إنها تتجاوز المفهوم إلى مستوى الانفتاح وتوليد الدلالة ، ويؤكد (إيزر) أن القارئ " نظام مرجعي " للنص يتم التواصل بينهما بما يضيفه القارئ إلى النص من الإحالات الكامنة داخله . تتفق هذه المنهجيات على أن القراءة إضافة إلى النصّ بالتفسير والتأويل ، لكنّ (إيكو) يحترز من النشاط الطليق في التأويل الذي يُسقطه القارئ على النص من ذاته مما يولد قراءات ذهانية ومنحرفة ومَرَضية .

إن سؤالاً ينبغي أن يطرح الآن : إذا كان نشاط القارئ التأويلي بملء الفجوات والفراغات داخل النص واضحاً في منهجيات الدراسات الحديثة ، فلماذا لا يفكر كتّاب التحديث بتصميم نصوصهم على وفق تلك المعرفة؛ لحمل القارئ على المشاركة التعضيدية في بناء خطاباتهم ؟. قد نجد إشارات لذلك عند عدد من الكتاب ، وهي إشارات تخصّ صنعة الكتابة . يشير (آلان روب غرييه) إلى ضرورة الإقلال من الصفات في كتابة الرواية ، وأرى أن سبب ما ذكره (غرييه) ربما يعود إلى أن الصفات كثيراً ما تكون كابحاً لخيال القارئ أو أنها بالمعنى الذي جاءت به نظرية القراءة ، لا تتيح للقارئ الاستعانة بـ (مستودعه) أي خبرته في ملء فراغ الصفة. إن جملةً مثل (.. . القرية الواقعة على الجبل ...) لا تتيح للقارئ أن يستدعي في خياله قريته التي ربّما تكون على مقربة من المدينة ، بسبب تقييد الكاتب مخيلة القارئ ومشاركته التعضيدية بـ (الصفة) التي هي (الواقعة على الجبل). إشارات صنعة الكتابة هي في "جوهرها " طموح الكاتب إلى أن يتفاعل نصّه مع قارئه.

مملكة القارئ تتأسس باستجابة القارئ إلى " الجميل " استجابة فاعلة ، وتوسيع نطاق حساسيته متعةً وثقافة وبناء رؤية جمالية – معرفية يستحق بها أن يحمل القارئ صفة القارئ النموذجي والأمثل والفائق.

متابعة

خلاصات النساج.. طاعن الا فعى في القلب

محمود النمر

صدرت المجموعة الرابعة عن دار ينابيع في دمشق " خلاصات النساج في الجمال " للشاعر عبد الله عبد الحسين جلاب ،بعد دواوينه الثلاثة ،-فاختة البحر -القوقعة - خربشات بمخالب الغراب - قسم الشاعر هذه المجموعة الى أربعة محاور - الطفل المسحور -الخفي من الكلام - اغصان الطائر - اشارات - وقد جاء في مدخل المجموعة -خطاب الحداثة تخريب أنظمة الكتابة ، وحفر بالبرق ،في سمائها المعفر بالرماد .

فاختة النفري هي :في اتساع الرؤيا ،عباراتها تضيق /خرجت بايقاعيها ،الداخلي والخارجي ،على إيقاع الجدة ذي النغم اليتيم فقسمت الزمان بالانغام /ذات افق على المجاهل والابعاد /جامعة الفنون ومشعة ، بانشطارات إيقاعها ،في تناحر الوجود :انشطار بياض فكرة ،سرد وحوار بتقنياتها :الصورة الجديدة ،التكرار ،السرد الشعري .

تتميز هذه المجموعة بشعر الومضة التي تعتمد أساسا ضغط الصورة المكثفة ،في اختيار الموضوعة والكلمة التي توحي وتصل الى الهدف الشعري بلا انزياحات طويلة فهي لمحة شعرية كالبرق ،ترسم الصورة لمن يود ان يراها في مخيلته التي تستوعب التراكيب السريعة المستجيبة بقدرة الإيحاءات ،القصيدة قد تكون بيتا واحدا ولكنها تمنح الذهن قدرة الولوج الى العالم الشعري الذي ترسمه الصورة فهي لا تمنح نفسها الا لمن يمتلك هذه القدرة وإلا سوف يخرج منها بلا محصّلة، كأنه مر وهو نائم ولكنه بلا حلم ،إذن هذه المجموعة تمنحك الحلم الذي يراه الشاعر ،ويرسمه بالكلمات لمن يود ان يرى هذا العالم الشعري المرتبك وليس العالم الذي تراه عيون الناس الطبيعيين ،الشعر ليس عالما طبيعيا، الشعر عالم ما وراء الطبيعي ،لذلك لايلجه الا المسكونون بهذا الحلم .

من اين لهذا القفر ساحرةُ الفردوس ..؟

مجموعة تتأبط الخيالات كلها بلا اجنحة تمر بكل الاجناس الحية والميتة، وحتى الميتة تمنحها يقظة صادمة لترى الوجود وتعود ادراجها لتشعر بقدرة الوجود اللانهائي ،الخلاّق لايحدث ،في السطح ،سورته : في القاع .

هذا الشاعر البصري يود ان يعبر/ الازمنة /الحلم /الالوان /السماء/ الحداثة /القباحات /الوجود / المفردات /الطقس/الاغتراب .

الكثير الكثير من الاشارات ترى هل اصاب الشاعر هذه الاشياء التي اشار اليها ان يعبر ويسجل ويثقب كل الجدران ليرى ما وراءها .... اليست هذه مهمة الشاعر الفطن ..؟

هيرتا ميلر الفائزة بنوبل .. دقة في اللغة و أمانة في التعبير عن الواقع

ترجمة: عادل العامل

الروائية الألمانية هيرتا مَيلر Herta Muller، التي كانت تتلقى تهديدات بالموت في موطنها الأصلي رومانيا بعد أن رفضت أن تُصبح مخبرة للشرطة السرية خلال حكم شاوشيسكو الشمولي، قد أصبحت الآن المرأة الثانية عشرة فقط خلال ١٠٨ أعوام التي تفوز بجائزة نوبل للأدب.

و لقد أثنى عليها حكّام نوبل لتصويرها " مشهد المجردين من الملكية dispossessed " مع " التركيز على الشّعر و صراحة النثر ". و مع هذا نجد ميلر تعود باستمرار إلى القمع، و الدكتاتورية و منفى حياتها، في رواياتها، و مقالاتها و قصائدها.

و قد صرحت مَيلر بشأن فوزها بنوبل قائلةً إنها " مسرورة بالجائزة ، و لا تزال لا تستطيع تصديق ذلك ". و وفقاً للسكرتير الدائم للأكاديمية السويدية، بيتَر إنغلَند، فإن " الزخم الأخلاقي " للروائية ميلر يعني أنها تستوفي المعايير للجائزة " بشكل كامل ". فهي، كما قال " من ناحية مؤلفة ذات لغة فنتازية حقاً، و من ناحية أخرى، تمتلك القدرة على إعطائك في الواقع إحساساً بماذا يعني العيش في دكتاتورية، و كذلك ماذا يشبه أن تكون جزءاً من أقلية في بلد آخر و ماذا يكون المنفى ".

كما امتدح أنغلند " الدقة الشديدة بالكلمات " لدى ميلر، قائلاً " إنها ظلت تعيش في دكتاتورية أساءت باستمرار المعاملة و استخدام اللغة، و قد ركز هذا لديها نوعاً من الشكوكية في نظرتها إلى استخدام الكلمات، استخدام اللغة. إن لديها دقة رائعة التنغيم fine tuned- جداً، جداً ".

و قد نصح القراء الجدد على أدب ميلر بالبدء بروايتها Herztier(المنشورة بالانكليزية بعنوان " أرض الخوخ الأخضر ")، التي اعتبرها كثيرون، كما قال، أفضل رواياتها، مضيفاً أن آخر رواية لها، (كل ما أملك أحمله معي)، كانت باهرةً كلياً.

ولدت ميلر في رومانيا في عام ١٩٥٣، و رفضت أن تتعاون مع جهاز أمن شاوشيسكو، و فقدت عملها كمعلمة و كانت موضعاً للتهديدات المتكررة حتى هاجرت في عام ١٩٨٧. و هي الآن تعيش في برلين، حيث تسلمت الكثير من الجوائز الأدبية، بما في ذلك الجائزة الأكثر احتراماً في ألمانيا، جائزة كليست، و جائزة فرانز كافكا، و جائزة إمباك ذات الـ ١٠٠ ألف يورو لروايتها Hertzier. . و قالت ميلر إنها كتبت هذه الرواية، و هي قصة خمسة شباب يعيشون تحت نظام شاوشيسكو الديكتاتوري، " في ذكرى أصدقائي الرومانيين الذين قتلوا تحت حكم شاوشيسكو "، و إنها كانت تشعر بها واجباً عليها. و قد دعتها النيو يورك تايمس " رواية ذات تفصيل مراقَب تصويرياً تسعى فيه المؤلفة إلى خلق نوع من الشعر من القبح الروحي و المادي للحياة في رومانيا الشيوعية".

و بالرغم من أن ميلر غادرت رومانيا قبل ٢٠ عاماً، فإنها تعود دائماً إلى موضوعات القمع، و المنفى، و الدكتاتورية في رواياتها و قصائدها، التي تتضمن أيضاً (التعيين The Appointment)، و هي حول امرأة شابة خلال حكم شاوشيسكو تعمل في معمل ملابس، و تخيط ملاحظات داخل بدلات رجال موجهة إلى إيطاليا تقول : " تزوَّجني ". أما رواياتها المنشورة بالانكليزية بعنوان (جواز السفر)، فتتتبَّع قصة صاحب طاحونة قروي في قرية رومانية تتكلم الألمانية، يتقدم بطلب الإذن بالهجرة إلى ألمانيا الغربية. و تدور Atemschauke حول صبي بعمر ١٧ سنة يُرَحَّل إلى معسكر أشغال أوكراني.

و تقول ميلر : " إن أشد تجربة علي هي العيش في ظل النظام الدكتاتوري في رومانيا. و ببساطة فإن العيش في ألمانيا، على بعد مئات الكيلومترات، لم يمحُ من ذهني تجربتي الماضية. فلقد حزمت ماضيّ حين غادرت، و أنا أتذكر أن الطغاة موضوع سار في ألمانيا ".

و قد قال بيت أيرتون، الذي نَشَر ميلر بالانكليزية في سيرينت تيل، أن اخبار الجائزة قد أثارته تماماً، " شيءٌ رائع و أعتقد بأنه يبيّن أن المسؤولين عن جائزة نوبل يقومون بعملهم في تنبيهنا إلى الكتابات المدهشة، و الكتاب المهمَلين، الذين أسيء تقدير قيمتهم في العالم الأنكلو ساكسوني ". و قال أيضاً : " إن ميلر من الأقلية الألمانية في رومانيا و من تلك التجربة، تكتب بيانات استثنائية عن كون جماعة ما أقلية عرقية في نظام حكم شمولي. لكن هذا ليس بكتابة سياسية بشكل صريح؛ إنه شعري و إيجازي جداً. و هي كاتبةٌ استثنائية ".

إن الفائز بجائزة نوبل يتم اختياره بواسطة ١٨ عضواً في الأكاديمية السويدية، يتسلمون حوالي ٢٠٠ ترشيح في بداية العام، ليقوموا بتخفيض العدد إلى قائمة قصيرة سرية من خمسة أشخاص ثم يقومون باختيار فائزهم، الذي يجب أن يحصل على أكثر من نصف الأصوات. و تُصبح ميلر الآن الفائز الـ١٠٦ بها؛ و كان الروائي الفرنسي لي كليزيو هو الذي فاز بها في العام الماضي.

عن Guardian